أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ماكلفهم فقال ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ وإني والله لاصبرن كما صبروا جهدي ولاقوة إلا بالله، ﴿ولاتستعجل لهم﴾ أي لاتستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى : ﴿فذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾ وكقوله تعالى : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ ﴿كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ كقوله جل وعلا ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ وكقوله عزل وجل ﴿ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ الآية . وقوله جل وعلا ﴿بلاغ﴾ . قال ابن جرير يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون تقديره وذلك لبث بلاغ ، والآخر أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لايهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لايعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة الأحقاف ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

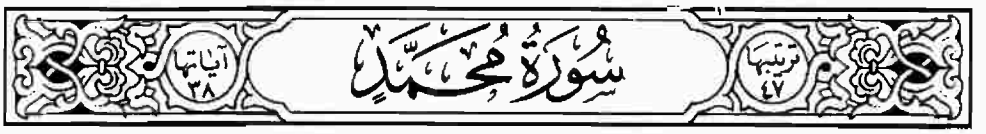

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى : ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولاجزاء كقوله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ ثم قال جل وعلا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿هو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة ولهذا قال جل جلاله ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم والكل متقارب . وقد جاء في حديث تشميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم» ثم قال عز وجل ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، ومايصيرون إليه في معادهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى مايعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلا ﴿فشدوا الوثاق﴾ الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم منتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فان الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال ﴿ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه مسوخة بقوله تعالى : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية ، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وقال الآخرون وهو الأكثرون : ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له «ماعندك ياثمامة ؟» فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ماشئت . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً ، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام ولله سبحانه وتعالى الحمد والمنة .

وقوله عز وجل ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال» . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن إبراهيم بن سليمان ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال إني سيبت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت لاقتال ، فقال له النبي ﷺ «الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام ، فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا الوليد عن جبير بن محمد بن مهاجر ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : لما فتح رسول الله ﷺ فتح قالوا يارسول الله سيبت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لاقتال قال «كذبوا الآن جاء القتال ، ولايزال الله تعالى يزيغ قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر الله ، وهم على ذلك وعقد دار المسلمين بالشام» . وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به ، والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم ، وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لايبقى حرب . وقال قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ حتى لايبقى شرك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله﴾ . ثم قال بعضهم : حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عز وجل ، وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله عز وجل ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ .

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي ـ رجل كانت له صحبة ـ قال : قال رسول الله ﷺ «يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان» تفرد به أحمد رحمه الله .

[حديث آخر] قال أحمد أيضاً : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثني إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن خالد بن

معدان عن المقدام بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» . وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين» وروي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته» ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿سيهديهم﴾ أي إلى الجنة كقوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ . وقوله عز وجل ﴿ويصلح بالهم﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي عرفهم بها وهداهم اليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لايخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لايستدلون عليها أحد ، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحو هذا ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ، ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً رواه البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا» .

ثم قال تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ كقوله عز وجل ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ فان الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ويثبت أقدامكم﴾ كما جاء في الحديث «من بلغ ذا سلطان حاجة من لايستطيع إبلاغها ، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة» ثم قال تبارك وتعالى : ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش !» أي فلا شفاه الله عز وجل . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وأضل أعمالهم﴾ أي أحبطها وأبطلها ، ولهذا قال ﴿ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله﴾ أي لايريدونه ولا يحبونه ﴿فأحبط أعمالهم﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ

الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى : ﴿أفلم يسيروا﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وللكافرين أمثالها﴾ . ثم قال ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبت ياعدو الله بل أبقى الله تعالى لك ما يسوءك ، وإن الذين عددت لأحياء ؛ فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : أعل هبل أعل هبل . فقال رسول الله ﷺ «ألا تجيبوه ؟» فقالوا : يارسول الله ومانقول قال ﷺ

قولوا «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولاعزى لكم ، فقال ﷺ «ألا تجيبوه ؟» قالوا : ومانقول يارسول الله ؟ قال : قولوا «الله مولانا ولا مولى لكم» .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يوم القيامة ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضما وقضما ، وليس لهم همة إلا في ذلك ، ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ثم قال تعالى : ﴿والنار مثوى لهم﴾ أي يوم جزائهم ، وقوله عز وجل ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ يعني مكة ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟ فان رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فان العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿يضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم . وقال ابن أبي حاتم : ذكر أبي عن محمد بن عبد الأعلى عن المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش ، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه فالتفت إلى مكة وقال «أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية ، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟﴾ أي ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟﴾ وكقوله تعالى : ﴿لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ ثم قال عز وجل ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال عكرمة ﴿مثل الجنة﴾ أي نعتها ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير منتن ، والعرب تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه ، وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم : غير آسن يعني الصافي الذي لاكدر فيه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : قال عبد الله رضي الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ، وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية» ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لافيها غول ولاهم عنها ينزفون﴾ ﴿لايصدعون عنها ولاينزفون﴾ ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح . وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطون النحل» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الجريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في صفة الجنة عن محمد بن يسار عن يزيد بن هارون ، عن سعيد بن ابي إياس الجريري وقال : حسن صحيح . وقال ابو بكر بن

مردويه : حدثنا احمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد ابو قدامة الأيادي ، حدثنا ابو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «هذه الأنهار تنشخب من جنة عدن في جوبة ثم تصدع بعد أنهارا» وفي الصحيح «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة ، وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة ، الزبيري وعبد الله بن الصفر السكري قالا : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة ، حدثني عبد الرحمن بن عياش عن دهم بن الأسود قال دهم ، وحدثنيه أيضاً أبو الأسود عن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت : يارسول الله فعلى مانطلع من الجنة ؟ قال ﷺ «على أنهار عسل مصفى ، وأنهار خمر مابها من صداع ولاندامة ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ماتعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة» قلت : يارسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم ، غير أن لاتوالد» وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن ابي الدنيا : حدثنا يعقوب بن عبيد عن يزيد بن هارون ، أخبرني الجريري عن معاوية بن قرة عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر ، وقد رواه ابو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون به مرفوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ كقوله عز وجل ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ومغفرة من ربهم﴾ اي مع ذلك كله . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ﴿وسقوا ماء حميما﴾ أي حاراً شديد الحر لايستطاع ﴿فقطع امعاءهم﴾ اي قطع مافي بطونهم من الامعاء والاحشاء - عياذا بالله تعالى من ذلك .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال آنفاً﴾ أي الساعة . لايعقلون ماقال ولايكترثون له . قال الله تعالى : ﴿اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال عز وجل ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة﴾ وكقوله جلت عظمته ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وقوله جل وعلا ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي .

وقال البخاري : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو رجاء ، حدثنا سهل بن سعد رضي

الله عـه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها «بعثت أنا والساعة كهاتين» ثم قال تعالى : ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لاينفعهم ذلك كقوله تعالى : ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ . ﴿وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ . وقوله عز وجل ﴿فاعلم أنه لاإله إلا الله﴾ هذا إخبار بأنه لاإله إلا الله ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه قوله عز وجل ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ومأأنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي» . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة «اللهم اغفر لي ماقدمت ومأأخرت ومأأسررت ومأأعلنت ومأأسرفت ، ومأأنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت» وفي الصحيح أنه قال «ياأيها الناس توبوا إلى ربكم فاني استغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد الله بن سرخس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت غفر الله لك يارسول الله فقال ﷺ «ولك» فقلت أستغفر لك . فقال رسول الله ﷺ «نعم ولكم» وقرأ ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ ثم نظرت إلى بعض كتفه الأيمن ـ أو كتفه الأيسر شعبة الذي شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به ، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى : حدثنا محمد بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور عن أبي نصر عن أبي رجاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فان إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالاهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون» وفي الأثر المروي «قال إبليس وعزتك وجلالك لاأزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لاأزال أغفر لهم مااستغفروني» والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً . وقوله تبارك وتعالى : ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم كقوله تبارك وتعالى : ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ وهذا القول ذهب اليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة ، وقال السدي متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم ، والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ۚ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على حكم القتال ولهذا قال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ثم قال مشجعاً لهم ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي خلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟﴾ أي تعودوا إلى ماكنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى :

﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الافساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالاصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان ، حدثني معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عز وجل فقال مه ، فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد به قال : قال رسول الله ﷺ «اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن علية ، حدثنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن عن ابيه عن ابي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «مامن ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع مايدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» . ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث إسماعيل هو ابن علية به ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون أبو محمد المراني ، حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «من سره النسأ في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه» . تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح . وقال احمد أيضاً : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : «لا ، إذن تتركون جميعا ولكن جد بالفضل وصلهم ، فانه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ماكنت على ذلك» تفرد به أحمد من هذا الوجه وله شاهد من وجه آخر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ، حدثنا مطر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «ان الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» رواه البخاري . وقال أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا قتادة عن أبي ثمامة الثقفي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «توضع الرحم يوم القيامة لها حجبة كحجبة المغزل تكلم بلسان طلق ذلق ، فتقطع من قطعها وتصل من وصلها» وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها بتته» وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار به ، وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال الامام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن فارض ، أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه ، وصلتك رحم إن رسول الله ﷺ قال «قال الله عز وجل أن الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي ؛ فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال ـ من بتها أبته» تفرد به أحمد من هذا الوجه ، ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري عن أبي سلمة عن المرداد ـ أو أبي المرداد ـ عن عبد الرحمن بن عوف به ، ورواه أبو داود والترمذي من رواية أبي سلمة عن أبيه ، والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

وقال الظهراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن عمار الموصلي ، حدثنا عيسى بن يونس عن الحجاج بن يونس عن الحجاج بن الفرافصة ، عن أبي عمر البصري عن سليمان قال : قال رسول الله ﷺ «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وبه قال رسول الله ﷺ «إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم» والأحاديث في هذا كثيرة ، والله أعلم .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم
مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ

أَنَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهيا عن الاعراض عنه فقال ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي بل على قلوب اقفالها ، فهي مطبقة لايخلص اليها شيء من معانيه ، قال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ يوما ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به . ثم قال تعالى : ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى﴾ أي فارقوا الايمان ورجعوا إلى الكفر ﴿من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿وأملى لهم﴾ أي غرهم وخدعهم ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف مايبطنون ، ولهذا قال الله عز وجل ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي مايسرون ومايخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿والله يكتب مايبيتون﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم ؟﴾ أي ايعتقد المنافقون ان الله لايكشف امرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح امرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقدانزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والاضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للاسلام واهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ يقول عز وجل ولو نشاء ياعمد لاريناك اشخاصهم فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة وردا للسرائر الى عالمها ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما اسر احد سريرة الا ابداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وفي الحديث «ماأسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها ان خيراً فخير وان شراً فشر» وقد ذكرنا مايستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في اول شرح البخاري بما اغنى عن إعادته ههنا ، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين . قال الامام احمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن سلمة بن عياض عن ابيه عن ابي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى واثنى عليه ثم قال «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يافلان ، قم يافلان قم يافلان - حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال - ان فيكم او منكم - منافقين فاتقوا الله» قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ

فقال : بعداً لك سائر اليوم . وقوله عز وجل ﴿ولنبلونكم﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن انه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا : إلا لنعلم أي لنرى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الايمان من بعد ماتبين له الهدى انه لن يضر الله شيئاً ، وانما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته بمقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما ان الحسنات يذهبن السيئات . وقد قال الامام احمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة . حدثنا ابو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا ابو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن ابي العالية قال كان اصحاب رسول الله ﷺ يرون انه لايضر مع «لاإله إلا الله ذنب» كما لاينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا اعمالكم﴾ فخافوا ان يبطل الذنب العمل ، ثم روي عن طريق عبد الله بن المبارك أخبرني بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا معشر اصحاب رسول الله ﷺ نرى انه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا اعمالكم﴾ فقلنا : ماهذا الذي يبطل اعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من اصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ثم امر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والاخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للاعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولاتبطلوا اعمالكم﴾ أي بالردة ، ولهذا قال بعدها ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ الآية . ثم قال جلا وعلا لعباده المؤمنين ﴿فلا تهنوا﴾ أي لاتضعفوا عن الاعداء ﴿وتدعوا الى السلم﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال فوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، . . ولهذا قال ﴿فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . فأما اذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة الى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة فله ان يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه الى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ الى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الاعداء ﴿ولن يتركم اعمالكم﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم اياها بل يوفيكم ثوابها ولاينقصكم منها شيئاً والله اعلم .

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها ﴿انما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ أي حاصلها ذلك الا ماكان منها لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولايسألكم اموالكم﴾ أي هو غني عنكم لايطلب منكم شيئاً وانما فرض عليكم الصدقات من الاموال مواساة لاخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه اليكم ، ثم قال جل جلاله ﴿ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ويخرج اضغانكم﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى ان في اخراج الاموال اخراج الاضغان . وصدق قتادة فان المال محبوب ولايصرف الا فيما هو احب الى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل﴾ أي لايجيب الى ذلك ﴿ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه﴾ أي انما نقص نفسه من الأجر وانما يعود وبال ذلك عليه ﴿والله الغني﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير اليه دائماً ، ولهذا قال تعالى : ﴿وأنتم الفقراء﴾ أي بالذات اليه ، فوصفه بالغني وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿وإن تتولوا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . وقال ابن ابي حاتم وابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، اخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا امثالكم﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين ان تولينا استبدل بنا ثم لايكونوا امثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس» تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة القتال ولله الحمد والمنة .

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة قال سمعت عبد الله بن مغفل يقول قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها قال معاوية لولا اني أكره أن يجتمع الناس عليه لحكيت قراءته ، اخرجاه من حديث شعبة به .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا الى المصالحة والمهادنة ، وان يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم الى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة ان شاء الله تعالى ، فلما نحر هديه حيث احصر ورجع انزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار مافيه من المصلحة ومآل الأمر اليه ، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره انه قال : انكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، وقال الأعمش عن ابي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : ماكنا نعد الفتح الا يوم الحديبية ، وقال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن ابي اسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ اربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فنزحناها فلم